النقد الأدبى

يقرأ الإنسان ليفهم. ويفهم ليكون له رأى فيما يقرأ. وكل إنسان له استعداد خاص فى الفهم، وطريق خاص فى الإدراك، وذوق خاص فى قدر الكلام والحكم على الأفكار. ولذلك تعددت المذاهب وتفاوتت طرق البحث.

القراءة والفهم والتفسير والحكم، هى أصول النقد وهى وحدها أيضًا. إذ لا يمكن حد النقد حدًا تامًا، لعدم اندماجه فى قانون عام، لأنه ليس علمًا من العلوم التى لها قواعد خاصة، وإنما هو فن من الفنون التى تضبط بالعلوم وتتقدم بتقدمها، فإنه مبنى على قوة الذكاء وسلامة الذوق، وذلك ليس داخلا تحت قانون عام، فضلا عن أنه لابد من ظهور أثر الناقد الشخصى فى حكمه على ما يقرأ، لأنه إنما يحكم على غيره بمزاجه الخاص. ولذلك كانت الفروق كثيرة بين آراء النقاد. لأن النقد صورة من صور عقولهم المختلفة.

ويختلف النقد باختلاف الموضوعات والأغراض المقصودة منه. فقد يكون من غرضه دراسة الأساليب، أو دراسة نفوس الكتاب أو دراسة الأفكار والآراء. فهو متغير لا يثبت على حالة واحدة، ولا يلزم قاعدة واحدة، فليس علمًا من العلوم. لأن العلوم لابد أن يكون قواعد عامة، تنطبق على جزئيات كثيرة، بدون أن يكون للنفوس أثر فيها. والنقد غير ذلك. فهو قبل كل شىء أثر من الآثار الخاصة للعقول يبحث عن آراء الكتاب ولا سيما خواصهم الذاتية. والتصورات والخيالات والإدراكات متعددة مختلفة، على حسب المواهب والطبائع، فلابد أن يكون النقد الذى هو فهم العقول المختلفة والإدراكات المختلفة أيضًا مختلفًا، غير مقيد بقانون ولا قاعدة. ولذلك كان

كل نقد قاعدى قابلا للطعن وعرضة للنقض. لأن النقد القاعدى أو المذهبى، يرمى إلى تقييد العقول والأفكار، وحملها على اتباع طريق واحد فى الفكر والتصور والخيال، وإلى الحكم عليها حكمًا عامًا. بطريقة واحدة. هذا إذا كانت الطريقة علمية كطريقة تين "Taine" مثلا القائلة: "إن كل أهل جنس واحد وبلد واحد وزمن واحد تتشابه عقولهم وتصوراتهم". وهو مذهب مردود فى جملته كما سنرى. لأن الذكاء والإدراك، والتصور والخيال، لا تنشأ من هذه العوارض فحسب، بل هناك أسباب أخرى فإن كانت الطريقة غير علمية، كأن تكون مبنية على الأذواق والميول، أو على قواعد اتفاقية، كجعل قصيدة من القصائد أو قصة من القصص نموذجًا عامًا لغيرها، أو منهجًا ينسج على منواله، فإن هذه الطريقة ليست خطأ فقط، بل هى خطر يهدد سير البلاغة ويقف تقدمها ويجعلها عبارة عن ضرب من التقليد لا غير.

على أن الإنسان يرى فى نفسه من الاستعداد للفهم وطرق البحث اليوم ما لم يكن له بالأمس. والقارئ تمر بذاكرته أفكار الكاتب وتتراكم، ثم يتناسى ما قرأ وما تأثر به، فإذا أعاد قراءة الكتاب الواحد مرة أخرى، كان حكمه عليه غيره فى المرة الأولى. فالأفكار تتغير والحكم يتغير بتغير المؤثرات.

ولا يصح أن يبنى النقد على الأذواق الخاصة. لأن الذوق استحسان ما يحبه الإنسان ويميل إليه. وهذا غير ما يراد من النقد. إذ النقد الصحيح "تحليل" فكر شخص آخر غير فكر القارئ نفسه، واندماج الإنسان فى نفس غيره ليفهمه بفكره ويدرك عقله بعقله والذوق "تحليل" نفس القارئ وفكره لمناسبة ما يقرأ، ويسبب ما يجده مما هو فى نفسه فى كلام غيره. إذ شعور

القارئ بسروره، ورضاه عما يقرأ، هو فى الحقيقة ناشئ من أنه وجد ما يحبه وما يميل إليه. وذلك شيء من خواص نفسه وميولها الذاتية. فكأنه إنما وجد فى ما يقرأ نفسه لأنفس الكاتب، وأعجب بميوله وآرائه لا بميول الكاتب وآرائه. أو أنه وجد إنسانًا آخر صور نفسه بالصورة التى هى عليها، ووجد أفكاره يعبر عنها غيره، فهو إذا فهم فإنما يفهم نفسه، ويرى صورتها. كالشاعر أو الكاتب الغرامى، يذكر صور النفوس العاشقة، وما تتذوقه من الآلام، فيقرأها العاشق ويتلذذ بها، ويتذوق ما فيها، لأنها صورة نفسه، وإن كانت صورة نفس مريضة، أكلها اليأس ونال منها البؤس. ولكنه راض عنها لأنه يجد فيها ما يجول بخاطره. وكالذى يحب الشعر الحماسى مثلا فإنه يعجب به، ويريد أن يحمل الناس على الإعجاب به، لأنه له ذوقًا خاصًا فى فهم هذا النوع، وإقدار هذا الكلام قدره. وكالخلقى يحب الحكمة والموعظة، فيحكم بهذا الذوق على كل ما يقرأ ويسمع. من هنا تعددت المذاهب فى النقد. فإذا كان مرجع ذلك الأضواق الخالصة، إذًا لضلت الأفهام، ولحارت العقول. فليس فى حكم القارئ بالحسن أو بالفتح شيء من الحقيقة أو على خلافها، متى كان ذلك مبنيًا على الأهواء الصرفة؟ وليس ذوق الناقد فى كتاب يقرأه إلا استحسان الكتاب أو استقباحه؟ وليس ذلك إلا اتفاق فكر القارئ وميوله مع فكر الكاتب وميوله. ولكن الذوق والنقد عند ذوى العقول السليمة يستمد بعضهما من بعض، ويساعد أحدهما الآخر، ويعمل كل منهما على حفظ أثره فى نفس القارئ، بحيث لا يضل بينهما، ولا يكون خاضعًا خضوعًا تامًا لأحدهما، فيبطل أثر الآخر، بل يتذوق ما يعجبه مما هو فى نفسه ولا يمنعه ذلك من الإعجاب بما هو مخالف لطبيعته.

مـثل هذا الذوق يتكون بالقـراء والدرس، ويكتـسب شـيـئًـا من اللين والمرونة وقبول الجديد، لأن الذوق خلق من الأخلاق القابلة للتهذيب والتنقيح والغناء بالقراءة والدرس والفهم، بحيث يكون ذوقًا مـبنيًا على التجربة مما قرأ الإنسان وفـهم من العلوم والفنون. فالذوق الصـحيح ينضج ويتـربى بالنقد، والنقد يتـهذب بالذوق لأنه معين ومـساعد على الفهم وتفـضيل الشيء على الشيء. فلو أن إنسانًا خلا من ذلك، كـان حب الاستطلاع لديه ناقصًا، لأنه إن لم يكن فى نفـسه ذوق ثابت لنوع من الأنواع، مـبنى على التجـربة، ولم توجد فى نفسه ملكة التفضيل والتفـرقة بين الأشياء، كان سواء عليه أقرأ هذا أم هذا. وخفى عليه كثير من المميزات، وكانت الفائدة من القراءة لديه أقل مما لو كان له ميل خاص. وربما خرج من الكتاب الذى يقرأ بدون فائدة ولا أثر. وهذا مشاهد معروف. أعط أحد المهندسين أو الأطباء أو الذين لا يميلون إلى الأدب ولا يحبونه، قصـيدة من القصائد المتينة، أو قصة أدبية ممتـعة ليقرأها. ربما قرأها وفهـمها، ولكنه يخرج منها بدون أثـر فى نفسه، لأنه ليس له ذوق خاص فى هذا النوع، فـلا يهتم بأن تصل نفـسه، أو أن يصل إلى نفسـه سر هذا الكلام. ودع إنسانًا لا يحب الـتمثيل، ولا يمـيل إليه، يحضـر "قطعة" تمثيليـة مملوءة بضروب الفنون ونقـد الاجتـماع. دعه يسـمع قطعة لموليـير أو لشكسبير أو لجيت، ثم أبحث فى نفسه عـما أخذه من مجلسه، تجده لم يتأثر بشيء، ولم يسـتفد فـائدة كبيـرة. لأنه ليس فى نفسـه تفضيـل لهذا النوع. وكذلك تكون القراءة الخالية من الرغبـة والميول الخاصة عبارة عن اطلاع عان، ومشـاهدات عامـة، لا تبقى فى نفس الإنسـان ولا توقظ من حركـة الفكر. فالذوق الصحيح يساعد النقـد على الإعجاب بالشيء أو على كراهته. أى أنه من الوسائل التى تمهد للنقد الحكم على الفنون وآثارها.

نرى من ذلك أن النقد الخالص الذى ليس للذوق فيه أثر هو نقد ناقص، أو نقد جاف. وأن الذوق الخالص من أثر النقد، ومن أثر التجربة العلمية والاطلاع - أى الذى هو الاستسلام إلى ميل الشخص فحسب - لا يرقى العقل، ولا يساعد على نمو قوة الإدراك ولا يصل بالإنسان إلى كشف الحقائق.

قلنا إن النقد ليس علمًا من العلوم بل هو فن من الفنون التى مرجعها استعداد النفوس فى الفهم والإدراك. ولكن هذا ليس كافيًا فى تعريف النقد. أيستسلم كل إنسان لفكره فى الحكم على ما يقرأ أو يسمع؟ أيكل الأمر إلى الذوق لا غير؟ ألا يكون النقد شيئًا آخر غير هذه الفوضى فى الحكم والإدراك؟ أليست هناك طرق ومذاهب تحدد ذلك، وتبين الخطأ من الصواب فى أحكام الناقدين؟ وإذا كان شىء من هذا فعلى أى أساس يبنى؟. مهما يكن من شىء، فالذى لا يصح إنكاره هو أن هناك حقائق فنية، كما أن هناك حقائق علمية. فالقارئ لقصيدة أو لقصة تاريخية يجد أثناء قراءته من الحقائق الفنية، ما يجده العالم أو الفيلسوف من الحقائق العلمية أو الفلسفية. نريد بالحقائق الفنية سر البلاغة الذى تشعر به النفوس، وبه تكون قيمة الكاتب والكتابة. ونريد بالحقائق الفنية جمال القول، وجمال الفكر، وجمال الصناعة. ثم نفس الموضوع بما فيه من الصور الإنسانية التى يجد فيها القارئ كثيرًا من النفوس والأشكال المختلفة لحياة العقول. يقرأ الإنسان القصيدة أو القصة البلاغية فيشعر بشىء فى نفسه لم يكن له قبل قراءتها. هذا أثر جديد حدث عنده، أو حقيقة من الحقائق ظهرت له فيما قرأ. ومهما وجد من الاختلاف والتناقض فى فهم هذه الحقائق الفنية، وفى الحكم على الكتب

والمؤلفين، فـذلك لا يدل على عدم وجودها، وإنما يدل على اخـتلاف طرق الفهم على أنها حقائق نسبية ككل شيء فى الوجود من أثر الإنسان.

فالنقد هو البـحث عن فهم هذه الحقائق. وهو توضـيح وترتيب ما فى الكتابات من الأفكار والآراء والأساليب، ثم الحكم على ذلك. والناقد الحاذق من يكون عالمًا بالموضوع وبمنزلته من العلوم والفنون الأخرى. بأن يكون حدد وعين لنفـسه طريقة خـاصة فى الفهم. ثم بعد ذلك يـبدى رأيه النهائى فيـما يقـرأ. فإذا قـرأ قصـيدة من القـصائد، عـرف من أى نوع هى: أمن الشعـر الوجدانى أم من الشعر الاجتماعى أم من الشعـر التمثيلى؟. فإذا حكم عليها بأنها من الشعر الوجدانى، لابد أن يكون عـارفًا بخواص هذا النوع من الشعر وبموضوعه وبصناعـته وبكل ما يميزه من غـيره، ثم لابد أن يقيس ذلك على طريقة خاصة قد عينها لنفسه، يجعـلها كمقياس عام له يقيس به ما يقرأ. بأن يكون له مـذهب يبنى عليه أحكامـه: كأن يكون من مـذهب البيانيـين الذين يحكمون على الكتابة على حسب ما بها من أنواع البيان، كالاستعارة والتشبيه وأنواع البديع، أو من الذين يحكمون عليها بما فيها من المعانى الجيدة والأفكار الصحـيحة، أو ممن يبنون مـذهبهم على البحث فى الكتـابة من جهة صلتـها بالاجتماع، أو ممن يحكمون عليها من جهة مطابقتها للحقائق، وغير ذلك من المذاهب الكثيـرة. وبهذا يمكن الحكم على الكتـابة من شعـر ونثر، بناء على طريقة ثابتة، مـبنية على أساس ثابت. وهذا ما يسـمونه بالمذاهب الأدبية فى النقد، أو أنواع النقد الأدبـى. وطرق النقد كثيرة مـتعددة، سنذكر منها شـيئًا ونبين المذاهب المختلفة فيها.

فالنقـد فى جملتـه لا يخرج عن وصف الكتابات "وتحلـيلها". ولكن

النقد البيانى واللغوى، والنقد المبنى على القواعد النحوية والصرفية، أصبح الآن غير كاف فى الحكم على كبار الكتاب ومواهبهم. ولم يعد فهم الكتابات الأدبية الآن قاصراً على الحكم بدون نظر إلى الصلة التى بينها وبين الكاتب وأحواله النفسية وتربيته العقلية، ثم إلى صلة ذلك كله بالاجتماع. أى أن النقد الأدبى أصبح الآن ممزوجًا بالتاريخ العام، وبالتاريخ الخاص بنفوس الكتاب وحياتهم الشخصية. وهذه خطوة خطاها أخيراً النقد الأدبى فى القرن التاسع عشر.

إذن فلابد من البحث فى الصلة بين الكاتب وكتابته والاجتماع. ولابد من معرفة البلد الذى ولد فيه الكاتب، والجو الذى تربى فيه. والزمن الذى عاش فيه، وحالته الصحية، ومزاجه وسيرته، والتربية التى حصل عليها، ومعرفة أصله وقبيلته، والأوصاف العامة لها. وإذا كان عاش عيشة مرضية سهلة، وكان من أهل الرفاهية واليسر، أم عاش عيشة فقير مجد مجتهد فى الحصول على قوام حياته؟ ثم لابد من معرفة حالته النفسية، وكيف كان يفكر، وكيف كانت ميوله الدينية، ومقدار نصيبه من العواطف، وأحوال الغرام، وكيف كان ميوله للمجون واللهو، وكيف كان يتصور الجمال ويفهم الفنون، وما فى كتاباته من "شخصياته". وغير ذلك مما يساعد على معرفة حالة الكاتب النفسية والجسمية، لضرورة ذلك كله فى الوصول إلى فهم استعداد النفوس وما فيها من أثر الذكاء. إذ كما أن البلاغة لا تكون دائمًا صورة الاجتماع، فليست أيضًا دائمًا دليلا على نفوس الكتاب. ولذا يجب البحث عن الأسباب التى تدعو الكاتب إلى ما كتب، وإلى خروجه عن طبيعته. ولا يمكن ذلك إلا بمعرفة الأسباب السابقة.

والخلاصة: أن النقد ليس له قواعد ثابتة، ولا قوانين عامة، بحيث يتخذها كل إنسان لتكون عمدته فى البحث. بل هو فن من الفنون يختلف باختلاف الذكاء والاستعداد. وأنه لا يصح الاعتماد على الأذواق الصرفة فى الحكم على البلاغات. ولكن هناك صلة حقيقية بين الذوق والأثر الذى يحدث فى نفس الإنسان عند قراءة شىء من الأدبيات، أو رؤية شىء من الفنون الجميلة. هذه الصلة يكون لها أثر صحيح نافع فى إدراك حقائق الأشياء، إذا كان الذوق قد تهذب بالتربية والتعليم، وتكون بالعلوم والفنون المختلفة. وقد يكون النقد الخالى من الذوق صحيحًا لمتانة طريقته، ولكنه يكون جافًا. ومهما كان النقد بعيدًا عن العلوم، غير مقيد بقاعدة، فإنه يمكن سن طريقة له. والطريقة التى نختارها هى:

(١) أن يكون الناقد واقفًا تمام الوقوف على نوع الكلام الذى يدرسه، وعلى جملة آراء الكاتبين فيه، بحيث يمكن أن يميزه من غيره، وأن يحكم عليه بناء عن خبرة تامة بآراء النقاد والمختصين بهذه الموضوعات.

(٢) أن يكون له طريقة يبنى عليها حكمه، وأصول يرجع إليها فى ذلك: كأن يكون مبناها صحة الأساليب أو صحة الفكر، أو رقى الخيال، أو صلة البلاغة بحوادث خاصة.

(٣) البحث عن صحة ما فى الكتابة بواسطة صلتها بالكاتب والاجتماع وتأثير ذلك فى الكلام والصناعة.

هذا هو جماع القول فى النقد الأدبى وسنذكر المذاهب المختلفة فى ذلك.